١ - الصُّوفية

يعرف أبو نصر الطوس–ت سنة ٣٧٨هـ - الصوفية بأنهم «هم أمناء الله - عز وجل - فى أرضه ، وخزنة أسراره وعلمه ، وصفوته من خلقه ، فهم عباده المخلصون ، وأولياؤه المتقون ، وأحباؤه الصادقون الصالحون ، منهم الأخيار والسابقون ، والأبرار المقربون ، والبدلاء والصديقون ، هم الذين أحيا الله بمعرفته قلوبهم ، وزين بخدمته جوارحهم ، وألهج بذكره ألسنتهم ، وطهّر بمراقبته أسرارهم ، سبق لهم منه الحسنى بحسن الرعاية ودوام العناية ، فتوّجهم بتاج الولاية ، وألبسهم حلل الهداية ، وأقبل بقلوبهم عليه تعطفاً ، وجمعهم بين يديه تلطفاً ، فاستغنوا به عما سواه ، وآثروه على ما دونه ، وانقطعوا إليه ، وتوكلوا عليه ، وعكفوا ببابه ، ورضوا بقضائه ، وصبروا على بلائه ، وفارقوا فيه الأوطان ، وهجروا له الإخوان ، وتركوا من أجله الأنساب ، وقطعوا فيه العلائق ، وهربوا من الخلائق ، مستأنسين به ، مستوحشين مما سواه ، (ذلك

فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم)[1] .

بهذا حدد معالم سلوكهم ومقاماتهم وأحوالهم . . استغناءً بالله عما سواه ، واستغراق فى الله بحجب كل ما عداه ، وحب لله يضىء كل طريق ، يفرج كل ضيق ، يُنسى العدوّ والصديق ، فلا ترى العين إلا وجهًا واحدًا ، ولا يستشعر القلب إلا فيضًا غامرًا ، يخصب الوجود ، وينسخ الحدود ، فلا يبقى زمان ، ولا يبقى مكان .

قمة الطريق إشراق ، لا يستشرف له إلا الصفوة الخالصة ، الأمينة ، البرّة ، الصادقة ، الصابرة ، الجاهدة ، المتخلية ، الذاكرة ، المستعلية ، العالمة ، المتنورة دائماً .

ومن ثم فالولاء ، والصفاء ، والعطاء أبدًا .

سئل أبو الحسن القنّاد – رحمه الله – عن معنى الصوفى ، فقال : مأخوذ من الصفاء ، وهو القيام لله – عز وجل – فى كل وقت ، بشرط الوفاء .

وسئل آخر ، فقال : إن العبد – إذا تحقق بالعبودية ، وصافاه الحق حتى صفا من كدر البشرية – نزل منازل الحقيقة ، وقارن أحكام الشريعة ، فإذا فعل ذلك فهو صوفى ، لأنه صوفى[2] .

وكان يمكن الاكتفاء بهذا التعليل . . لكن أورد السهروردى أسبابًا أخرى للتسمية ، نوردها لإثبات أصالة اللفظ فى العربية . بما يحمل فى معانيه المختلفة من سمات القوم .

يقال : «تصوّف» ، إذا لبس الصوف ، كما يقال : «تقمّص» ، إذا

---

(١) اللمع – دار الكتب الحديثة سنة ١٩٦٠ – ص ١٩ .

(٢) اللمع – ص ٤٦ و ٤٧ .

لبس القميص ، وكان اختيارهم للبس الصوف ، لتركهم زينة الدنيا ، وقناعتهم بسد الجوعة ، وستر العورة ، واستغراقهم فى أمر الآخرة . .

وقيل : سُمّوا صوفية ، لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عزّ وجل ، بارتفاع هممهم ، وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه .

وقيل : نسبة إلى « الصفّة » التى كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله ، ﷺ (٣) . .

وهناك تعليلات أخرى . كأن يقال : إن أول شخص وقف نفسه كلية لخدمة الله جل وعلا ، وكان يجاور الكعبة – اسمه « صوفة » ، وحقيقة اسمه الغوث بن مرة ، وسبب تسميته صوفة . أن أمه ما كان يعيش لها ولد ، فنذرت لئن عاش لتجعلنّه ربيط الكعبة ، وتجعلن فى رأسه صوفة . وفعلت ، فقيل له صوفة ، ولولده من بعده .

وقيل فى « صوفة » : إنه حين ارتبط بالكعبة أصابته الشمس ، فسقط واسترخى ، فقالت أمه : ما صار ابنى إلا صوفة .

وقال السمعانى فى الأنساب : هى من بنى صوفة ، وهم جماعة من العرب كانوا يتزهدون ، ويقللون من التهافت على الدنيا ، فنسبت هذه الطائفة إليهم .

وقيل : سمى صوفيًّا ، لأنه كالشعرة هيّن لَيّن (٤) .

أقوال كثيرة ، لعل أقربها إلى المعقول ارتباط التسمية بالواقع الإسلامى ،

---

(٣) عوارف المعارف لأبى حفص عمر السهروردى – دار الكتاب العربى ببيروت سنة ١٩٦٦ ص ٦٠ و ٦١ .

(٤) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزى – إدارة الطبوعات المنيرية بالقاهرة بلا تاريخ – ص ١٥٦ .

من الصفاء والصف والصفّة .

وقد شجب الدكتور عبد الحليم محمود النسبة إلى الصفاء والصف والصفة ، لأن اشتقاق « صوفى » منها « بعيد فى مقتضى اللغة » . . وأنكر ما ذكره البيرونى من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة « سوف » اليونانية ، التى تعنى الحكمة ، لسبب بسيط هو أن التسمية بالصوفى كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى العربية ، وأيد ذلك بقول الدكتور زكى مبارك : وما الذى يمنع أن تكون « سوفيا » – بمعنى الحكمة الروحانية جاءت من كلمة « صوف » ، وهى قديمة فى العربية ؟ ومع هذا أنكر أن تكون نسبة إلى « الصوف » ، لأن « القوم لم يختصوا بلبس الصوف » ، ثم عاد ليقول : « إن هذه الكلمة – تصوف – لم توضع فى الأصل للتصوف بمعناه العادى الذى نفهم الآن ، وإنما وضعت فى المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا . . والزهاد كانوا موجودين فى العصر الجاهلى ، تدينًا ، أو منطقيًّا ، وكانوا موجودين فى صدر الإسلام . تدينًا ، أو منطقيًّا . . حتى إذا ذاع التصوف وانتشر ممثلوه عازفين عن الدنيا ، لابسين للصوف – أطلقت الكلمة عليهم » . . ثم يقول « وإذا كانت الكلمة تنتسب إلى الصوف فهى موفقة كل التوفيق ، إذ إنها تمتّ بصلة حرفية نغمية جرسية إلى كثير من الكلمات التى تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف ، كالصفاء والصف والصفة و « سوفيا » اليونانية ، التى تدل على معرفة الغيب ، على وجه الخصوص » . . وكأنه بهذا يمضى إلى تأييد ما ذهب إليه الشيخ عبد الواحد يحيى (رينيه جينو) من « أنها فى الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغى لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف

« الحكمة الإلهية » ، ويكون الصوفى الحقيقى إذن هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه « العارف بالله » ، إذ إن الله لا يعرف إلا به »[٥] . .

ولما كانت « الحكمة الإلهية » لا تتوافر إلا إذا « صافاه الحق » ، فكلمة « صوفى » أولى أن يكتفى فى تعليلها بما أورد الطوسى ، وأكده بندار بن الحسين – ت سنة ٣٥٣ هـ – حين سئل عن الفرق بين الصوفى والمتصوف ، فقال : الصوفى من اختاره الله لنفسه فصافاه ، وعن نفسه براه ، ولم يردّه إلى تعمّل وتكلف ، وصوفى على وزن عُوفى ، أى عافاه الله ، والمتصوف المزاحم على المراتب ، مع تكلف ، وكون رغبته فى الدنيا[٦] .

وقال شاعرهم : صافى فصوفى حتى سمى الصوفى .

وقال أبو العباس المرسى – ت سنة ٦٨٠ هـ – إنه منسوب لفعل الله تعالى به ، أى صافاه الله تعالى فصوفى ، فسمى صوفيًا[٧] . .

و« المصافاة » لا تتحقق إلا « بعلوم ذوقية . لا يكاد النظر يصل إليها إلا بذوق ووجدان » . .

يقول حجة الإسلام الغزالى : « اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات »[٨] . .

---

(٥) مقالات ملحقة بكتاب (المنقذ من الضلال) للغزالى – دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٣٨٥ هـ – ص ١٥٤ – ١٦١ .

(٦) الرسالة القشيرية – دار الكتب الحديثة سنة ١٩٦٦ جـ١ حاشية ص ١٧٥ .

(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى – الحلبى سنة ١٩٥٤ – جـ ٢ ص ١٨ .

(٨) المنقذ من الضلال – ص ١٢٣ و ١٢٤ .

والذوق والحال وتبدل الصفات « لا تحصل مع محبة الدنيا ، ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى ، ولا تدرس إلا فى مدرسة التقوى ، قال الله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) ، جعل العلم ميراث التقوى ، وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك » ، ولقد « قال الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ، ذكر بكلمة « إنما » ، فيتنفى العلم عمن لا يخشى الله[9] » . .

ومع أن التعليل الأخير فيه نظر ، إذ يمكن القول إن الله سبحانه قصر الخشية على العلم ، فإن من المعلوم أن « علوم الوراثة مستخرجة من علوم الدراسة ، ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص السائغ للشاربين ، ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه »[10] . . ذلك ، لأن علوم الدراسة هى التى تهذب النفوس . وتجلو القلوب والعقول ، وتهيئ المناخ للرياضات الروحية التى تعين على « الكشف » ، واستلهام « العلم اللدنى » .

« قيل للحسن البصرى : هكذا قال الفقهاء ، فقال : وهل رأيت فقيهًا قط ؟ إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا .

فالصوفية أخذوا حظًا من علم الدراسة ، فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم ، فلما علموا بما عملوا أفادهم العمل علم الوراثة ، فهم مع سائر العلماء فى علومهم ، وتميزوا عنهم بعلوم زائدة ، هى علوم الوراثة ، وعلم الوراثة هو الفقه فى الدين ، قال الله تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) ، فصار الإنذار مستفادًا من الفقه ، والإنذار إحياء المنذر بماء العلم ، والإحياء بالعلم رتبة الفقيه فى الدين ، فصار

---

(٩) عوارف المعارف : ص ٣٥ – ٣٧ .

(١٠) عوارف المعارف – ص ٣٩ .

الفقه فى الدين من أكمل المراتب وأعلاها » .

« عن معاوية : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « من يرد الله به خيرًا يفقه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى » .

« وروى عن عبد الله بن عباس : أفضل العبادة الفقه فى الدين .

والحق – سبحانه وتعالى – جعل الفقه صفة القلب ، فقال : (لهم قلوب لا يفقهون بها) ، فلما فقهوا علموا ، ولما علموا عملوا ، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفوا ! اهتدوا ، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة ، وأكثر انقيادًا لمعالم الدين ، وأوفر حظًّا من نور اليقين »[11] .

والانقياد لمعالم الدين ، والاستشراف لنور اليقين ، هما قوام التصوف . .

« سئل النبى – ﷺ – عن قوم تركوا العمل بالدين ، وأحسنوا الظن فى الله ، فقال : كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » . صدق رسول الله .

وسئل ذو النون المصرى – ت سنة ٢٤٥ هـ – بماذا عرفت الله تعالى ؟ فقال : « عرفت الله بالله ، وعرفت ما سوى الله برسول الله » .

وقال أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد – ت سنة ٢٩٧ هـ – : « علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله ، عليه الصلاة والسلام » .

وقال : « لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ، ويمشى على الماء ، وهو يتعاطى أمرًا يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان » .

وقال أبو سليمان الدارانى – ت سنة ٢١٥ هـ – : « ربما تنكت الحقيقة قلبى أربعين يومًا ، فلا آذن لها أن تدخل قلبى إلا بشاهدين من الكتاب والسنة » .

---

(١١) عوارف المعارف – ص ١٤ – ١٦ .

وقال أبو الحسن الشاذلى – ت سنة ٦٥٦ هـ – : « إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة ، فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف ، وقل لنفسك : إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها فى جانب الكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة » .

وقال ابن عربى – ت سنة ٦٣٨ هـ : « لا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام ، ومن يفعل ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً ، وخرج عن دين الله » .

ولم يقف التصوف عند حدود « التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » – كما عبر سهل التسترى – ت سنة ٢٨٣ هـ – عن أصول التصوف – بل إن « الطريق » اتسع لألوان من الرياضات النفسية والجسمية .

قال الجنيد : « بنى الطريق على أربع : لا تتكلم إلا عن وجود ، ولا تأكل إلا عن فاقة ، ولا تنم إلا عن غلبة ، ولا تسكت إلا عن خشية » .

وقال : « الصوفى هو الذى سلم قلبه كقلب إبراهيم من حب الدنيا ، وصار بمنزلة الحامل لأوامر الله ، وتسليمه تسليم إسماعيل ، وحزنه حزن داود ، وفقره فقر عيسى ، وصبره صبر أيوب ، وشوقه شوق موسى وقت المناجاة ، وإخلاصه إخلاص محمد ، ﷺ » .

. . . وازداد (الطريق) عمقاً ، فصار « التصوف ترك كل حظ للنفس » ، كما قال أبو الحسين النورى – ت سنة ٢٩٥ هـ : و « أن يكون كل شىء ملكاً لك ، ولا تكون ملكاً لأى شىء »[١٢] ، كما قال سمنون بن حمزة « المحب » . .

---

(١٢) الأقوال السابقة من (المنقذ من الضلال) ص ٢١٠ – ٢١٢ و (اللمع) ص ١٤٤ – ١٤٦ و (الرسالة القشيرية) ص ١٠٥ – ١١٢ و (الفتوحات) جـ٢ ص ١٦٤ ، مع تغيير فى الترتيب .

بمعنى أن تتخلى عن الدنيا ، فلا تتملكك شهوة فى شىء منها ، وبهذا تملك كل شىء بزهدك فى كل شىء ، وتفرغك لخالق كل شىء . . وهذا ما يخالف بين الصوفية والفقهاء ، « فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا »[١٣] .

« إن طبقات الصوفية اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث فى معتقداتهم ، وقبلوا علومهم ، ولم يخالفوهم فى معانيهم ورسومهم ، إذا كان ذلك مجانباً للبدع واتباع الهوى ، ومنوطاً بالأسوة والاقتداء ، وشاركوهم بالقول والموافقة فى جميع علومهم . .

فإذا اختلفوا فاستحباب الصوفية فى مذهبهم الأخذ بالأحسن والأولى والأتم ، احتياطًا للدين ، وتعظيمًا لما أمر الله به عباده ، واجتنابًا لما نهاهم الله عنه »[١٤] .

وزادوا ، فلم يكن الأحسن والأولى والأتم سلوكاً فحسب ، بل الأحسن والأولى والأتم حالا .

ولهذا « بدأ معنى الشرك يتضح لهم فى صورة لا تخطر على بال اللاهين الذين شغلتهم أموالهم وأهلوهم ، وبدءوا يحطمون الشرك ، يحطمون أصنامه وأركانه ، من النفس ، والهوى ، والشيطان ، ومن الغرائز الحيوانية ، والغرائز الإنسانية ، وانهار الشرك حتى من همسات الفؤاد ، لقد انهار الشرك الواضح ، وانهار الشرك الخفى ، وثبت فى أذواقهم ، واستقر فى أحوالهم ، ومقاماتهم : أن

---

(١٣) المنقذ من الضلال – ص ١٢٤ .

(١٤) اللمع – ص ٢٨ .

(لا إله إلا الله) ، وأنه (أينما تولوا فثم وجه الله)[١٥] .

وانتهى الأمر إلى أن « التصوف شرك » - كما قال أبو بكر الشبلى - ت سنة ٣٣٤هـ - : « لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير ، ولا غير »[١٦] .

* * *

والذين يصبحون ربانيين ، ويملأ الحق - جل وعلا - قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وجوارحهم بفيض من نوره ، فلا يرون سواه ، ولا ينشغلون بغيره ، (يحبهم ويحبونه) ، يكون سلوكهم « التوجه إلى الله تعالى ، والانقطاع إليه ، والعكوف على بلائه ، والرضا عن قضائه .

ومداومة المحافظة على القلوب ينفى الخواطر المذمومة ، ومساكنة الأفكار الشاغلة التى لا يعلمها غير الله عز وجل ، حتى يعبدوا الله تعالى بقلوب حاضرة .

والإيثار فى وقت الحاجة إليه ، وحسن الظن بالله ، والمسارعة إلى جميع الخيرات .

والقناعة بقليل الدنيا وكثيرها ، وإيثار الجوع على الشبع ، والتواضع للصغير والكبير »[١٧] .

يقول أبو بكر الكتانى - ت سنة ٣٢٢هـ - : « التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء » .

ويقول أبو محمد الجريرى - ت سنة ٣١١هـ - : « ليس التصوف رسماً ولا

---

(١٥) المنقذ من الضلال - مقالات الدكتور عبد الحليم محمود - ص ٢٤٠ .

(١٦) كشف المحجوب للهجويرى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٤ جـ١ ص ٢٣٤ .

(١٧) اللمع - ٢٩ و ٣٠ .

علمًا ، ولكن خلق ، لأنه لو كان رسمًا لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله » .

ولقد حاول ابن سينا التفريق بين الزاهد والعابد والصوفى ، وبين أهداف كل ، فقال : « المُعْرِض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد . . والمواظب على فعل العبادات ، من القيام والصيام ونحوهما ، يخص باسم العابد . . والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستديمًا لشروق نور الحق فى سره ، يخص باسم العارف » . والعارف عند ابن سينا هو الصوفى .

والكل متفق على أن زهد غير الصوفى إنما هو الاستمتاع بالآخرة ، فهو نوع من المعاملة : كأنه يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة . . أما الصوفى فإنه يزهد فى الدنيا ، لأنه يتنزه عن أن يشغله شىء عن الله . .

وعبادة غير الصوفى هدفها دخول الجنة ، فمثله مثل الأجير ، يعمل طيلة النهار ليأخذ أجره فى المساء . . أما عبادة الصوفى فإنها استدامة لصلته بالله تعالى ، إنه يعبد الله لأنه مستحق للعبادة ، ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة ولا لرهبة .

تقول رابعة العدوية – ت سنة ١٨٥ هـ – « اللهم إن كنت أعبدك خوفًا من نارك فألقنى فيها ، وإن كنت أعبدك طمعًا فى جنتك فاحرمنيها ، وإن كنت أعبدك لوجهك الكريم فلا تحرمنى من رؤيته » .

وقالت لجماعة من رجال الله : « أرأيتم لو لم يخلق جنة ولا نارًا ، أليس هو بأهل أن يعبد ؟ ! » .

وقالت جارية عتاب الكاتب :

يا منايا وسيدى واعتمادى
طال شوقى متى يكون لقاكا
ليس سؤالى من الجنان نعيمًا
غير أنى أريدها لأراكا

ولهذا لم يكن التصوف كرامات ولا خوارق عادات . . إنه خلق يتجاوز الكرامات والخوارق إلى ما هو أسمى .

قال أبو سعيد الخراز – ت سنة ٢٦٨ هـ – الصوفى : « من صفّى ربُّه قلبه ، فامتلأ قلبه نورًا ، ومن دخل فى عين اللذة بذكر الله » .

وقال أبو بكر الكتانى : « التصوف صفاء ومشاهدة » .

وقال الجنيد : « التصوف هو أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به » .

وقال جعفر الخلدى – ت سنة ٣٤٨هـ : « التصوف طموح النفس فى العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية » .

وقال الشبلى : « بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده » .

وقال الإمام الغزالى : « الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم « وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرّة بلطف

الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية »[١٨] .

ولعل هذا داخل فى إطار ما جاء فى الحديث القدسى الصحيح الذى رواه البخارى : « من عادى لى وليًّا – فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه »[١٩] .

لما دخل بغداد أبو عبد الرحمن حاتم الأصم – ت سنة ٢٣٧ هـ – اجتمع إليه أهل بغداد ، فقالوا له : يا أبا عبد الرحمن ، أنت رجل أعجمى ، لكن ليس يكلمك أحد إلا قطعته ، قال : معى ثلاث خصال ، بهن أظهر على خصمى ، أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسى ألا أجهل عليه .

فبلغ ذلك أحمد بن حنبل ، فقال : سبحان الله ، ما أعقله ! ! وجاء إليه ، فسأله : يا أبا عبد الرحمن ، ما السلامة من الدنيا ؟

قال حاتم : يا أبا عبد الله ، لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال : تغفر للقوم جهلهم ، وتمنع جهلك عنهم ، وتبذل لهم شيئك ، وتكون من شيئهم آيسًا[٢٠] .

وهذا يحتاج إلى قدر غير مألوف من المجاهدة النفسية الطويلة ، حتى يتحقق

---

(١٨) الأقوال السابقة من (المنقذ من الضلال) ص ١٦٢ – ١٧٠ ما عدا قول جارية عتاب فمن (الفتوحات) جـ٢ ص ٣٥٩ .

(١٩) الرسالة القشيرية – هامش ص ٢٣٦ .

(٢٠) عوارف المعارف – ص ٣٧ .

قول الحق ، سبحانه : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[٢١] . . إذ « يدرجهم الله تعالى فى مدارج الكسب بأنواع الرياضات والمجاهدات وسهر الدياجى وظمأ الهواجر ، وتتأجج فيهم نيران الطلب ، وتتحجب دونهم لوامع الأدب ، يتقلّبون فى رمضاء الإرادة ، وينخلعون عن كل مألوف وعادة » ، بحيث لا يكون الذكر إلا لله ، ولا يكون الافتقار ، لما عداه ، ولقد كان رسول الله – ﷺ – دائم الافتقار إلى مولاه ، وإنه ليقول : « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، اكلأنى كلاءة الوليد)[٢٢] .

* * *

و« الكلاءة » نور يغسل به المولى قلب عبده المؤمن ، فلا يدع فيه غير الحقيقة الربانية . .

لما سئل رسول الله – ﷺ – عن معنى « الشرح » فى قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)[٢٣] . . قال : « هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب » ، فقيل : وما علامته؟ قال : « التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود »[٢٤] . .

والتجافى والإنابة يحققان الطهارة الروحية ، والصفاء النفسى ، والتسامى ، بحيث يخلُص العبد الصالح من ذاته ، فتشفّ له الحجب الكثيفة ، وقد يتراءى له ذلك النور الذى « ينبجس من الجود الإلهى فى بعض الأحايين ، ويجب

---

(٢١) العنكبوت – ٦٩ .

(٢٢) عوارف المعارف – ص ٤٦ و٤٧ .

(٢٣) الأنعام – ١٢٥ .

(٢٤) المنقذ من الضلال – ص ١٢٥ .

الترصد له » ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها »[٢٥] .

ولقد عبر الصوفية عن هذه النفحات بأنها علم القلوب ، ونسبوا إلى الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة قوله : (يا بنى إسرائيل ، لا تقولوا العلم فى السماء ، من ينزل به ، ولا فى تخوم الأرض ، من يصعد به ، ولا من وراء البحار ، من يعبر فيأتى به ، العلم مجعول فى قلوبكم ، تأدبوا بين يدى بآداب الروحانيين ، وتخلقوا إلى بأخلاق الصديقين ، أظهر العلم من قلوبكم ، حتى يغطيكم ، أو يغمركم »[٢٦] .

ويوضح الدكتور عبد الحليم محمود هذا العلم بقوله :

نوع من المعرفة ، ليس طريقه الحس ، وليس طريقه العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة ، ذلك النوع فى أبسط صوره وأعمها وأشملها هو الرؤيا ، فالقرآن يحدثنا فى سورة يوسف عن عدة رؤى ، رؤيا يوسف ، ورؤيا السجينين ، ورؤيا الملك .

والرؤيا ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، وليست معرفة مصدرها الكتب المقدسة ، ولكن قد قرب الله على خلقه بأن أعطاهم نموذجًا من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحًا ، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير ، وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه ، وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشيًّا عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره ، فيدرك الغيب – لأنكر ، وأقام البرهان على

---

(٢٥) المصدر السابق – ص ٧٦ .

(٢٦) عوارف المعارف – ص ٣٨ و ٣٩ .

استحالته ، وقال : القوى الحساسة سبب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء – مع وجودها وحضورها – فبأن لا يدركها مع ركودها . أولى وأحق ، وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة .

والقرآن غاصٌ بهذا النمط من المعرفة الإلهية ، إنه غاص بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحيًا ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل إليهم ، أعنى الملائكة .

والقرآن يحدثنا أيضاً فى أسلوب قصصى طريف شائق عن العبد الصالح الذى أخذ سيدنا موسى فى البحث عنه جهده ، حتى وجده ، وأبدى رغبته فى اصطحابه ومرافقته ، فقال له العبد الصالح : (إنك لن تستطيع معى صبرا) .

وجرت أحداث لم يدرك سرها موسى إلا بعد أن قال له العبد الصالح : (هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) ، ذلك أن الرجل الصالح آتاه الله من لدنه علمًا[٢٧] . .

هناك إذن طريق للمعرفة غير الحس والعقل ، وليقل الاستدلاليون ما يقولون ، فإن قدم الاستدلاليين خشبية ، والقدم الخشبية واهنة . كما قال جلال الدين الرومى .

روى الشيخ أبو سعيد أبو الخير فى كتابه « أسرار التوحيد » : أن ابن سينا التقى به فى الخلوة لمدة ثلاثة أيام ، لا يخرجان إلا لصلاة الجمعة ، فلما انصرف ابن سينا سأله التلامذة : كيف وجدت الشيخ ؟ قال : كل ما أعرفه أنا يراه

---

(٢٧) المنقذ من الضلال – ص ٣٣٠ – ٣٣٢ بتصرف .

هو ، وسأل المريدون الشيخ . كيف وجدت أبا على – فأجاب : كل ما نراه نحن يعلمه هو[٢٨] .

وقال جلال الدين الرومى : فطهر نفسك من أوصاف نفسك حتى ترى ذاتك النقية الطاهرة ، فتجد فى القلب علوم الأنبياء بغير كتاب ومعبد وأستاذ[٢٨] .

وقال الشيخ داود الكبير بن ماخلا – وكان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب – من الأولياء من يتكلم من خزانة قلبه ، ومنهم من يتكلم من خزانة غيبه ، فالمتكلم من خزانة قلبه محصور ، والمتكلم من خزانة غيبه غير محصور . .

وقال : جلّت الحقيقة أن تكون البشرية محلا لتلقّيها ، ولكن إذا أراد أن يوصلها إليك ، انبسط شعاع سلطان شعاعها ، فهد فى قلبك محلا لتلقّيها ، فيها وجدتها ، لا بك :

أعارتك طرفًا رآها به
فكان البصير بها طرفها[٢٩]

وقال فريد الدين العطار فى فاتحة « تذكرة الأولياء » : إذا تجاوزت القرآن والأحاديث فليس ثم كلام يعلو على كلام مشايخ الطرق ، رحمة الله عليهم ، فكلامهم ثمرة للعمل والحال ، وليس نتيجة للحفظ والمقال وإنه من العيان لا من البيان ، ومن الإسرار لا من التكرار ، ومن العلم اللدنى لا من العلم

---

(٢٨) تاريخ التصوف فى الإسلام–ترجمة صادق نشأت–النهضة المصرية سنة ١٩٧٠ جـ٢ هامش ص ٦٦٦ وص ٥٩٢ .

(٢٩) الطبقات الكبرى– جـ١ ص ١٩٠ .

الكسبى ، ومن الثورة والهيام ، لا من العمل والإقدام ، ومن عالم « أدبنى ربى » ، لا من عالم «علمنى أبى » ، فإنهم ورثة الأنبياء[٣٠] .

ولعل هذا يبرر قول ابن عربى عن كتاب « الفتوحات المكية » :

« وهذا الكتاب من ذلك النمط عندنا ، فو الله ما كتبت منه حرفًا إلا عن إملاء إلهى ، وإلقاء ربانى ، أو نفث روحانى فى روع كيانى »[٣١] .

ويقرر هذا الإمام محمد عبده – ت سنة ١٩٠٥ م – فى « رسالة التوحيد » بقوله :

« أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية ، من العرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال – حال الاتصال – فى النوع أو الجنس ، لهم مشارقة فى بعض أحوالهم على شىء من الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم « المثال » لا تنكر عليهم ، لتحقق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئًا مما يحدّث به عن الأنبياء – صلوات الله عليهم – ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف »[٣٢] .

أو كما قال الإمام الغزالى : « من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة »[٣٣] .

* * *

(٣٠) تاريخ التصوف فى الإسلام جـ ١ ص ٢٧٠ .

(٣١) الفتوحات المكية – جـ ٣ ص ٤٥٦ .

(٣٢) رسالة التوحيد – دار النصر سنة ١٩٦٩ – ص ١٠٠ – ١٠١ .

(٣٣) إحياء علوم الدين – الشعب جـ ١ ص ٣٤ .

و« المعرفة تأتى من وجهين : من عين الجود ، وبذل المجهود[٣٤] . كما قال أبو سعيد الخراز – ت سنة ٢٨٦ هـ .

وبقدر البذل يكون العطاء .

نسب إلى أرسطاطاليس قوله : إنى ربما خلوت بنفسى ، وخلعت بدنى ، وصرت كأنى جوهر مجرد بلا بَدَن ، فأكون داخلا فى ذاتى ، خارجًا عن جميع الأشياء ، فأرى فى ذاتى من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجبًا باهتًا ، فأعلم أنى جزء من أجزاء العالم الأعلى الفاضل الشريف[٣٥] . .

ومن خلال تجربة الإمام الغزالى الخاصة يقرر أنه « من أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتًا ، ويقتبسون منهم فوائد . . ثم يترقى الحال ، من مشاهدة الصور والأمثال . إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة ، ينتهى الأمر إلى قرب ، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ »[٣٦] . .

يقول الإمام الشعرانى : « لعمرى ، إن عباد الأوثان لم يجرءوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله ، بل قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يظن بأولياء الله أن يدّعوا الاتحاد بالحق ، سبحانه ؟ ! »[٣٦] . .

ويمضى الإمام الغزالى فى تصوير هذا الحال بقوله : « الذى لابسته تلك

---

(٣٤) اللمع – ص ٥٦ .

(٣٥) رسائل إخوان الصفا – دار بيروت سنة ١٩٥٧ جـ١ ص ١٣٧ .

(٣٦) المنقذ من الضلال – ص ١٢٩ و ٢٤٤ .

الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيراً ، ولاتسأل عن الخبر[٣٦]

لأنه صار إلى حال لا تنهض به لغة ، ولا يقوى عليه بيان .

يقول ابن تيمية – وقلمه أعنف الأقلام على هؤلاء القوم – : « إن أهل الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة ، مطابقة لما فى الصحيحين عن النبى – ﷺ – أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر » ، وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنها تجلى لهم أمورًا صادقة ، وفى الترمذى – عن أبى سعيد عن النبى ﷺ – أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قرأ قوله : (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) ، وقال بعض الصحابة : أظنه والله للحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم ، وفى صحيح البخارى – عن أبى هريرة عن النبى ﷺ – أنه قال : « ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمضى بها » . . وفى رواية « فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمضى » . فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به . .

وكانوا يقولون : إن السكينة تنطق على لسان عمر ، رضى الله عنه . وقال ﷺ : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده .

---

(٣٦) المنقذ من الضلال – ص ١٢٩ و ٢٤٤ .

وقال الله تعالى : (نور على نور) ، نور الإيمان على نور القرآن ، وقال تعالى : (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) ، وهو المؤمن على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن ، شهد الله فى القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان ، وهذا القدر مما أقرّ به حذّاق النظار ، لما تكلموا فى وجوب النظر وتحصيله للعلم ، فقيل لهم : أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون نظر» . . ومن متقدمى هؤلاء الحذاق كالكيا الهرّاس والغزالى وغيرهما ، ومن متأخريهم كالرازى والآمدى[٣٧] . . ويزيد ابن تيمية الأمر وضوحاً بقوله : « فأحدهم من يذكر الله حتى يغلب على قلبه ذكر الله ، ويستغرق فى ذلك ، فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ، ويفنى ذكره وشهوده لما سواه ، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت ، وأن نفسه قد فنيت ، حتى يتوهم أنه هو الله ، وأن الوجود هو الله »[٣٨] . . ولعله بهذا التعليل النفسى يلتقى بما نسب إلى أرسطو ، وهو ما يرتاح إليه العقل ، ولا يستطيع ابن قيم الجوزية إنكاره ، مع أنه – وهو تلميذ ابن تيمية – من أشد الغلاة فى التهجم على الصوفية . .

يقول ابن قيم : « نعم ، قد يعذر فى الفناء فى الذات المجردة لقوة الوارد ، وضعف المحل عن شهود معانى الأسماء والصفات ، فتأمل هذا الموضع ، وأعطه حقه ، ولا يصدنك ذلك ما يحيل عليه أرباب الفناء من الكشف والذوق ، فإنا لا ننكره ، بل نقرّ به ، ولكن الشأن فى مرتبته[٣٩] » .

---

(٣٧) مجموعة الرسائل الكبرى – ابن تيمية – مطبعة صبيح سنة ١٩٦٦ – جـ١ ص ٥١ – ٥٣ .

(٣٨) المصدر السابق – جـ١ ص ١٥٠ .

(٣٩) مدارج السالكين – دار الكتاب العربى – بيروت سنة ١٩٧٢ – جـ١ ص ٤٧٩ .

ولأن التصوف ذوق وحال قد يرقى إلى حد المشاهدة – ورقى الحال لا يكون إلا بالمجاهدة ، والمجاهدة دُربة ومدارسة وذكر – اقتضى الأمر وجود شيخ يكون القدوة ، ويكون الرقيب ، ويكون المدرب .

« ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ : « والذى نفس محمد بيده ، لئن شئتم لأقسمن لكم ، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده ، ويحببون عباد الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة » . .

وهذا الذى ذكره رسول الله – ﷺ – هو رتبة المشيخة . . ورتبة المشيخة من أعلى الرتب فى طريق الصوفية . .

فأما وجه كون الشيخ يحبب الله إلى عباده ، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ ، ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى ، قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

ووجه كونه يحبب عباد الله تعالى إليه ، أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب ، وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ، ولاح فيه جمال التوحيد (٤٠) .

ولهذا كان من واجب المريد « ألا يدخل فى صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه ، وأنه أقوم بالتأديب من غيره . . وألا يكتم على الشيخ شيئًا من حاله ، ومواهب الحق عنده ، وما يظهر له من كرامة وإجابة ، ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه ، وما يستحى من كشفه يذكره إيماء وتعريضاً ، فإن المريد متى انطوى ضميره على شىء لا يكشفه للشيخ تصريحًا أو تعويضًا ، يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق ، وبالقول مع

(٤٠) عوارف المعارف – ص ٨٣ .

الشيخ تنحل العقدة وتزول . . وإذا كان كلامه مع الشيخ فى أمر دينه أو أمر دنياه ، لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه ، حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ، ولسماع كلامه وقوله متفرغ . . عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس منا من لم يجلّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه »[٤١] .

وأول ما يؤمر به المريد – كما يقول سهل التسترى – : « التبرّى من الحركات المذمومة ، ثم النقل إلى الحركات المحمودة ، ثم التفرد لأمر الله تعالى ، ثم التوقف فى الرشاد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ، ويكون الرضا والتسليم مراده ، والتفويض والتوكل حاله ، ثم يمن الله تعالى بعد هذه بالمعرفة ، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة ، وهذا مقام حملة العرش ، وليس بعده مقام »[٤٢] . .

وكان من واجب الشيخ أن يتصرف فى ملبوس المريد «كتصرفه فى المطعوم ، وكتصرفه فى صومه وإفطاره ، وكتصرفه فى أمر دينه ، إلى ما يرى من المصلحة ، من دوام الذكر ، ودوام التنفّل فى الصلاة ، ودوام التلاوة ، ودوام الخدمة ، وكتصرفه فيه برده إلى الكسب أو الفتوح أو غير ذلك ، فللشيخ إشراف على البواطن وتنوع الاستعدادات ، فيأمر كل مريد من أمر معاشه ومعاده بما يصلح له ، ولتنوع الاستعدادات تنوعت مراتب الدعوة[٤٣] .

وعلى الشيخ أن يتنزه (عن مال المريد ، وخدمته ، والارتفاق من جانبه

---

(٤١) عوارف المعارف – ص ٤١١ – ٤١٣ بتصرف .

(٤٢) المصدر السابق – ص ٥٣٢ .

(٤٣) عوارف المعارف – ص ٩٩ .

بوجه من الوجوه ، وإذا رأى من بعض المريدين مكروهًا ، أو علم من حاله اعوجاجًا ، أو أحس منه بدعوى ، أو رأى أنه داخله عجب – ألا يصرح له بالمكروه الذى يعلم ، ويكشف عن وجه المذمة مجملا ، فتحصل بذلك الفائدة للكل ، فهذا أقرب إلى المداراة ، وأكثر أثراً لتألّف القلوب . .

وإذا رأى المريد تقصيراً فى خدمة ندبه إليها ، يحمل تقصيره ، ويعفوعنه ، ويحرضه على الخدمة بالرفق واللين . .

وعليه أن يحفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون به ، ويمنحون من أنواع المنح ، فسر المريد لا يتعدى ربه وشيخه[٤٤] .

وقد جرى أكثر المشايخ على عادة إلباس المريد (خرقة) ، تكون مظهر ارتباط بين الشيخ والمريد ، وتحكيم من المريد للشيخ فى نفسه ، وعلامة التفويض والتسليم ، ودخول المريد فى حكم الشيخ ، « دخوله فى حكم الله وحكم رسوله ، وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ . .

حدث عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال : أخبرنى أبى عن أبيه قال : بايعنا رسول الله – ﷺ – على السمع والطاعة ، فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق حيث كنا ، ولا نخاف فى الله لومة لائم . . ففى الخرقة معنى المبايعة[٤٥] .

ولمكان « الخرقة » من نفوس الصوفية أحدثوا لها تاريخاً يقول : إنه « قد نقل أن إبراهيم الخليل – عليه السلام – حين ألقى فى النار جرد من ثيابه ، وقذف فى النار عرياناً ، فأتاه جبريل – عليه السلام – بقميص من حرير الجنة وألبسه

---

(٤٤) المصدر السابق – ص ٤١٩ و ٤٢٠ .

(٤٥) عوارف المعارف – ص ٩٥ .

إياه ، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام ، فلما مات ورثه إسحق ، فلما مات ورثه يعقوب ، فجعل يعقوب - عليه السلام - ذلك القميص فى تعويذ ، وجلعه فى عنق يوسف ، فكان لا يفارقه ، ولما ألقى فى البئر عرياناً جاءه جبريل ، وكان عليه التعويذ ، فأخرج القميص منه ، وألبسه إياه » . .

ولما علم بما أصاب والده ، إذْ ابيضت عيناه من الحزن ، « أمره جبريل أن أرسل بقميصك ، فإن فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى أو سقيم إلا صحّ وعوفى . . فتكون الخرقة عند المريد الصادق متحملة إليه عرف الجنة »[٤٦] .

ومضى التاريخ بهذه « الخرقة » إلى « الخضر » صاحب الشخصية الأسطورية فى حياة القوم ، فصار المشايخ يتلقون الخرقة عن الخضر ، والمريدون يتلقونها عن المشايخ .

ولعله من نافلة القول أن نعلق على هذه الظاهرة التى لا منطق لها ، ولا تلتقى مع احتياجات إنسانية ، أو فوق الإنسانية ، ونكتفى بقول ابن عربى :

« الخرقة عندنا إنما هى عبارة عن الصحبة والأدب والتخلق ، ولهذا لا يوجد لباسها متصلا برسول الله ﷺ ، ولكن توجد صحبة وأدباً ، وهو المعبر عنه بلباس التقوى ، فجرت عادة أصحاب الأحوال ، إذا رأوا أحدًا من أصحابهم عنده نقص فى أمر ما ، وأرادوا أن يكملوا له حاله ، يتحد به هذا الشيخ ، فإذا اتحد به أخذ ذلك الثوب الذى عليه فى حال ذلك الحال ، ونزعه ، وأفرغه على الرجل الذى يريد تكملة حاله ، فيسرى فيه ذلك الحال ، فيكمل له ذلك »[٤٧]

---

(٤٦) المصدى السابق - ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٤٧) الفتوحات المكية - جـ١ ص ١٨٧ .

فالأمر لا يعدو « خلعة » تحمل طابعًا رمزيًّا . .

ومهما يكن من شيء ففى عالم الوهم والإيهام متسع . .

* * *

و « الشطحات » الصوفية – فيما يرى القوم ، وفيما يقولون – لا تكاد تخرج بهم عن المكانة الفكرية المتحررة المتشوفة الطامحة فى تاريخ الفكر الإنسانى . .

يقول ماسينون : إن رجال المعرفة الصوفية فى الإسلام كانوا دائمًا النماذج التى تقدم لنا الصورة الحية للمفكرين الكبار فى الإسلام . .

ويقول شاعر الإسلام محمد إقبال : إن الإسلام عند الصوفية يأخذ طابعًا من الجمال والكمال ، والإنسانية العالية ، والأخوة العالمية ، لا تجده فى إسلام الفقهاء أو المتكلمين » (٤٨) .

ولهذا – إذا ذكر « بعضهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذى يأتى الرسول ، وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد ، والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته ، أو يقول : « الولى أفضل من النبى (٤٩) – فلا ينبغى أن نعجل بتكفيرهم ، كما فعل ابن تيمية (٤٩) ، لأنه « كيف يجوز أن نعتقد فيه الكفر بحكاية تحكى عنه ، ولم نعرف إرادته فيما قال ، ولا نطلع على حاله فى الوقت الذى قال ؟ ! وهل يجوز لنا أن نحكم عليه فيما يبلغنا عنه إلا بعد أن يكون لنا حال مثل حاله ، ووقت مثل وقته ، ووجْد مثل وجده ؟ ! » (٥٠) . .

« سئل شيخ الإسلام تقى الدين السبكى رحمه الله تعالى – عن حكم تكفير

---

(٤٨) مقدمة (اللمع) للمحقق – ص ٩ .

(٤٩) مجموعة الرسائل الكبرى – جـ١ ص ٢١ .

(٥٠) اللمع – ص ٤٧٣ .

غلاة المبتدعة وأهل الأهواء والمتفوهين بالكلام على الذات المقدس ، فقال رضى الله عنه : اعلم أيها السائل أن كل من خاف من الله – عز وجل – استعظم القول بالتكفير لمن يقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، إذ التكفير أمر هائل عظيم الخطر ، لأن من كفّر شخصاً بعينه فكأنه أخبر أن عاقبته فى الآخرة الخلود فى النار أبد الآبدين ، وأنه فى الدنيا مباح الدم والمال ، لا يمكّن من نكاح مسلمة ، ولا يجرى عليه أحكام المسلمين ، لا فى حياته ، ولا بعد مماته ، والخطأ فى ترك ألف كافر أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم امرئ مسلم ، وفى الحديث : « لأن يخطئ الإمام فى العفو أحب إلىّ من أن يخطئ فى العقوبة ، ثم إن تلك المسائل التى يفتى فيها بتكفير هؤلاء القوم فى غاية الدقة والغموض ، لكثرة شبهها ، واختلاف قرائنها ، وتفاوت دواعيها ، والاستقصاء فى معرفة الخطأ من سائر صنوف وجوهه ، والاطلاع على حقائق التأويل وشرائطه فى أماكنها ، ومعرفة الألفاظ المحتملة للتأويل وغير المحتملة ، وذلك يستدعى معرفة جميع طرق أهل اللسان من سائر قبائل العرب ، فى حقائقها ومجازاتها واستعاراتها ، ومعرفة دقائق التوحيد وغوامضه ، إلى غير ذلك ، مما هو متعذر جدًّا على أكابر علماء عصرنا ، فضلا عن غيرهم ، وإذا كان الإنسان يعجز عن تحرير معتقده فى عبارة فكيف يحرر اعتقاد غيره من عبارته ؟ ! فما بقى الحكم بالتكفير إلا لمن صرح بالكفر ، واختاره دينًا ، وجحد الشهادتين ، وخرج عن دين الإسلام جملة ، وهذا نادر وقوعه ، فالأدب الوقوف عن تكفير أهل الأهواء والبدع ، والتسليم للقوم فى كل شىء قالوه ، مما يخالف صريح النصوص ا.هـ »[51] .

(٥١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢

فإذا كان هذا الحكم الإسلامى النبيل مع أهل الأهواء والبدع ، فكيف بمن يتفانون فى حب الله ؟ !

حقًّا إننا نجد الصوفية يدعمون مذهبهم بكثير من الأحاديث الموضوعة ، والأقوال المختلفة ، منسوبة إلى هذا الحكيم أو ذاك العالم ، لكنها وإن كانت تحمل طابع الافتئات والتجنى ، فإنا لو نزعنا عنها غلاف الرواية ، ورأيناها تعبيرًا عن وجهة نظر راويها ، لوجدناها تحمل طابع التفكير العميق ، القادر على الطيران إلى آفاق بعيدة رحبة . .

ولهذا لا ينبغى أن نقع تحت تأثير مآخذ ابن تيمية ، من أن « مما يروونه عنه – ﷺ – عن الله : « ما وسعنى سمائى ولا أرضى ، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » ، هذا مذكور فى الإسرائيليات ، ليس له سند معروف عن النبى ﷺ . . ومما يروونه عنه أيضًا : « كنت كنزًا لا أعرف ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت خلقًا ، فعرفتهم بى ، فعرفونى » . لا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف » . . إلخ [٥٢] . .

ولا ينبغى أن ينفّرنا قول أبى يزيد البسطامى – ت سنة ٢٦١ هـ – : (أشرفت على ميدان اللَّيْسيّة ، فمازلت أطير فيه عشر سنين ، حتى صرت من ليس فى ليس بليس ، ثم أشرفت على التضييع ، وهو ميدان التوحيد ، فلم أزل أطير بليس فى التضييع ، حتى ضعت فى الضياع ضياعًا ، وضعت فضعت عن التضييع بليس فى ليس فى ضياعه التضييع ، ثم أشرفت على التوحيد فى غيبوبة الخلق عن العارف ، وغيبوبة العارف عن

---

(٥٢) مجموعة الرسائل الكبرى – جـ٢ ص ٣٥٤ .

الخلق »[٥٣] . . فهذا لون من « الدلال » الأدبى ، و « التلاعب » اللفظى من رجل عرفت قدرته الرصينة على الصياغة الدقيقة ، وهو لا يخرج فى هذا ، وفى قوله : « زيّنى بوحدانيتك ، وألبسنى أنانيتك ، وادفعنى إلى أحديتك ، حتى إذا رآنى خلقك قالوا : رأيناك ، فتكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هنا »[٥٣] — عن إرادة فناء المخلوق فى الخالق ، الأولى فى شكل تجريبى ، والثانية فى صورة دعاء ، وليس من السهل الغلو فى الحكم على من هذا حاله .

فإذا أردنا الوقوف عند كل لفظ لنعرف مأتاه ومغزاه ، فما أظننا إلا صائرين « من ليس فى ليس بليس » .

ومادام القوم يرمزون ويستوحون ، ويغلفون ألفاظهم بأغلفة شفافة ألّقة حينًا ، كثيفة باهتة أحيانًا أخرى ، فإن همنا — نحن القراء — أن نقف عند حد الاستيحاء ، مأخوذين بالجو البيانى الذى يتنفسون أنسامه ، ويضربون فى آفاقه بأجنحتهم الرحيبة القوية .

ولعل من أخطر ما يجبهنا من كتابات بعضهم استخدام عبارات « التثليث » ، فيما يتناولون من علاقة الناسوت باللاهوت .

ودون شك كان للثقافة المسيحية دور فى هذا ، وبخاصة أن المجتمع الإسلامى اتسع فيما اتسع لمجتمعات مسيحية ، والحضارة الإسلامية استمدت فيما استمدت روافد من ثقافات مسيحية ، والصراع الإسلامى واجه فيما واجه تحديات مسيحية ، فإذا أخذنا فى الاعتبار أن الفكرالصوفى فكر لا تخضعه القيود ، وأنه ينهل المعرفة حيث وجدها ، ويستعين الرمز متى استراح إليه — فإن من واجبنا أن نتروى طويلا طويلا ، وأن نتردد أكثر فأكثر ، قبل أن نجرؤ على

(٥٣) اللمع — ص ٤٦٨ — ٤٧١ .

قول قاطع فى هؤلاء القوم .

يقول ابن عربى : « اعلم أن الأحد لا يكون عنه شىء البتّة ، وأن أول الأعداد إنما هو الاثنان ، ولا يكون عن الاثنين شىء أصلا ما لم يكن ثالث يزوجهما ، ويربط بعضهما ، ويكون الجامع لهما ، فحينئذ يتكون عنهما ما يتكون بحسب ما يكون هذان الاثنان عليه ، إما أن يكون من الأسماء الإلهية ، وإما من الأكوان المعنوية أو المحسوسة ، أى شىء كان فلابد أن يكون الأمر على ما ذكرنا ، وهذا هو حكم الاسم الفرد ، فالثلاثة أول الأفراد ، وعن هذا الاسم ظهر ما ظهر من أعيان الممكنات ، فما وجد ممكن من واحد ، وإنما وجد من جمع ، وأقل الجمع ثلاثة ، وهو الفرد ، فافتقر كل ممكن إلى الاسم الفرد ، ثم إنه لما كان الاسم الفرد وثلث الحكم أعطى فى الممكن الذى يوجد : ثلاثة أمور لابد أن يفيدها ، وحينئذ يوجده ، ولما كانت الغاية فى المجموع : الثلاثة التى هى أول الأفراد ، وهو أقل الجمع ، وحصل بها المقصود والغنى عن إضافة رابع إليها ، كان غاية قوة المشرك : الثلاثة ، فقال : « إن الله تعالى ثالث ثلاثة » ولم يزد على ذلك »[٥٤] .

ولما كان من خصائص أسلوب ابن عربى أن الفكرة لا تتضح فى قلمه بسهولة ، لأنها تعتمد على سرعة اللمح ، أو لسيولة قلمه ، أو لوقوعه تحت مؤثر اجتماعى ، فإن علينا أن نتتبع فكرته فى موضع آخر ، إذ يقول : « إن الوجود الأول ، وإن كان واحد العين ، من حيث ذاته ، فإن له حكم نسبة إلى ما ظهر من العالم عنه ، فهو ذات وجودية ونسبة ، فهذا أصل شفعية العالم . . ولابد من رابط معقول بين الذات والنسبة ، حتى تقبل الذات هذه النسبة ، فظهرت

(٥٤) الفتوحات جـ ٣ ص ١٦٦ عن بلاثيوس ص ٢٦٧ .

الفردية بمعقولية الرابط ، فكانت الثلاثة أول الأفراد ، ولا رابع فى الأصل ، فالثلاثة أول الأفراد فى العدد إلى مالا يتناهى »[55] .

لم أكد أفهم عن التثليث إلا « الذات والنسبة والرابط » ، وهذه معان لا تتضح إلا بقوله : « جاء الكشف النبوى والإخبار الإلٰهى بقوله عن ذات تسمى إلٰهًا ، إذا أراد شيئًا فهذان أمران ، إن قال له كن ، فهذا أمر ثالث ، والثلاثة أول الأفراد ، فظهر التكوين عن الفرد ، لا عن الأحد »[56] .

ويزداد هذا وضوحًا بقول الدكتور عبد الرحمن بدوى : « أول الأعداد الفردية هو الثلاثة لا الواحد ، لأن الواحد ليس بعدد ، وإنما هو أصل الأعداد ، وما زاد على الثلاثة من الأعداد الفردية فهو متفرع عنها . . وعلى أساس هذه الفكرة العددية بنى ابن عربى فكرة ميتافيزيقية موازية لها ، لا فيما يذكر عن « محمد » باعتباره مظهرًا للاسم الإلٰهى « الفرد » ، بل فى كل ما يقوله عن عملية الخلق التى يرجعها إلى الفردية الثلاثية ، فأول صورة تعينت فيها الذات الإلهية كانت ثلاثية ، لأن اليقين كان فى صورة العلم ، حيث العلم والعالم والمعلوم حقيقة واحدة ، وقد كان هذا التعيّن الأول تعيناً حبيًّا أيضاً ، حيث الحب والمحب والمحبوب حقيقة واحدة ، وإلى هذا أشار ابن عربى بقوله :

تثلث محبوبى وقد كان واحدًا

كما صيروا الأقنام بالذات أقنما[57]

---

(٥٥) الفتوحات جـ ٣ ص ٦٠٣ عن بلاثيوس ص ٢٦٧ .

(٥٦) الفتوحات جـ ٤ ص ٨٩ .

(٥٧) ابن عربى — آسين بلاثيوس — جـ ٢ ص ٣٢٢ .

فابن عربى – من خلال تفسير الدكتور عبد الرحمن بدوى – واقع تحت تأثير ثقافة وافدة ، أكثر إخوان الصفاء – فى المجلد الأول من رسائلهم – من الأخذ بها ، وهى فى قلم ابن عربى – وفى قلم إخوان الصفا – غير ذات غناء ، لا نحس أنها تخرج عن « التظاهر بالمعرفة » ، ولا تمثل هضمًا واستيعابًا ، بحيث تصبح تعبيرًا عن رأى أو حاجة نفسية ، فضلا عن فلسفة ما . .

ولهذا نجد ابن عربى يقول فى موضع آخر :

« وأما أهل التثليث فيرجى لهم التخلص ، لما فى التثليث من الفردية ، لأن الفرد من نعوت الواحد ، فهم موحدون توحيد تركيب ، فيرجى أن تعمهم الرحمة المركبة ، ولهذا سمّوا كفارًا ، لأنهم ستروا الثانى بالثالث ، فصار الثانى بالثالث بين الواحد والثالث كالبرزخ ، فربما لحق أهل التثليث بالموحدين فى حضرة الفردانية ، لا فى حضرة الوحدانية »[٥٨])

بينما يقول فى موضع آخر :

« عليك بالهجرة ، ولا تقم بين أظهر الكفار ، فإن ذلك إهانة دين الإسلام ، وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله ، فإن الله ما أمر بالقتال إلا لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى . . واعلم أن المقيم بين أظهر الكفار – مع تمكنه من الخروج من بين ظهرانيهم – لاحظ له من الإسلام . . فالزائرون اليوم بيت المقدس ، والمقيمون فيه من المسلمين ، هم الذين قال الله فيهم : (ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)[٥٩] .

فبالنظرة العامة للقولين نجد أن الرجل لا يصدر عن معتقد ، بل لا يصدر

---

(٥٨) الفتوحات – جـ ٣ ص ٢٢٨ عن بلاثيوس ص ٢٦٧ .

(٥٩) الفتوحات جـ ٤ ص ٥٩٦ و ٦٠١ و ٧١٦ و ٧١٨ عن بلاثيوس ص ٣٧ .

عن رأى ثابت ، فهو فى القول الأول قال : « تعمهم الرحمة المركبة » ، فى حين قال بعد ذلك : ربما لحقوا بالموحدين ، وفرق بين التثليث والتوحيد ، فى حين أن الثواب واحد تقريبًا . . ومع هذا فقوله لا ينطبق على حقيقة معتقد « المسيحية » – كما سيأتى – وهو فى القول الثانى ، مع أنه معاصر الحرب الصليبية ، داع إلى الخيانة ، وتسليم الأرض لأعدائها المغتصبين . .

ومن ثم لا ينبغى أن يعد ابن عربى نموذجًا للتزاوج بين الإسلام والمسيحية ، ولا يستدل بقوله فى هذا المجال ، كما يفعل آسين بلاثيوس ، المستشرق الإسبانى ، ومع أن الصوفية تأثروا فعلا بالفكر المسيحى وغيره – كما سنبين بعد – فإن الأمر لا يصل إلى حد قول بلاثيوس :

« لم يكن فى الإسلام شىء شبيه بما فى المسيحية من عقيدة التجسيد ، أى تأنس الله – « صيرورته إنسانًا » – وهو مما يمهد للتصوف تمامًا ، ففى المسيحية أن المسيح إله وإنسان فى وقت واحد ، وفيه يتحقق الاتحاد الأقنومى « الشخصى » ، وهو نموذج العلاقة الوثيقة بين الإنسان والألوهية ، فأتى صوفى عاش فى بغداد فى القرن العاشر الميلادى « الرابع الهجرى » ، وهو الحلاج ، وخطا هذه الخطوة الجديدة فى التقريب بين الإسلام والمسيحية ، فعبارة « أنا الحق » تتحقق تمامًا فى المسيح ، وتتحقق صوفيًا . لدى أولئك الذين يقتدون به فى حياته القائمة على المحبة والفداء ، لكن ، كما أنه فى شخص المسيح يتحد اللاهوت بالناسوت ، دون أن يختلطا ، فكذلك عند الحلاج الاتحاد أو « الحلول » يتميز فيه أيضًا شخصية النفس وذات الله ، ولا تختلطان ، وعبارته « أنا الحق » يبدو أنها لا تدل إذن على أكثر مما تدل عليه عبارة القديس

بولس : « المسيح يحيا فيّ » ، ومن هنا يرى أن مذهب الحلاج ليس حلولا ووحدة وجود ، بل هو من هذه الناحية أشبه بالمسيحية .

غير أن الصوفية المتأخرين أكدوا وجهة النظر المحايثة ، أكثر فأكثر ، وتصوروا الاتحاد « الوصول » على أنه إفناء الشخصية الإنسانية فى الله ، وابن عربى من بينهم هو الذى فسر عبارة الحلاج المشهورة تفسيراً حلوليًّا ، فالله والإنسان متميزان الواحد عن الآخر عقليًّا ومنطقيًّا فحسب ، كمظهرين لجوهر الواحد الأحد ، والوجدان الصوفى هو الذى يكشف للإنسان عن هذه الهوية الفعلية بين الإنسان والله ، وهنا تلتقى الميتافيزيقا الأفلاطونية والعرفانية « الغنوصية » عند ابن عربى ، وقد رأينا ذلك فى عقيدته الدينية أن الإنسان الكامل الذى فيه تتحقق هذه الهوية باستمرار ، هو النور الإلهى المتجسد فى آدم ، وبعده فى سائر الأنبياء ، حتى النبى محمد – ﷺ ، وكان آدم أول تجلّ موضوعى للطبيعة الإلهية ، وقبل وجوده الزمنى على الأرض ، وجد سابقًا وجودًا سماويًّا أزليًّا أبديًّا ، على مثال « النوس » – العقل – فى الأفلاطونية المحدثة ، و« اللاغوس » عند الغنوصيين ، ومحمد – ﷺ – وهو التجلى « التجسد » الأخير لهذا النور ، هو الإنسان الكامل الوسيط للطف الإلهى للناس كافة ، وللأولياء بخاصة .

وهذا التصوير للنبى محمد – ﷺ – ترى فيه الملامح المميّزة لتصوير بولس للمسيح ، الوجود السابق منذ الأزل ، العلاقة مع آدم ، التجلى « التجسد » دور الوسيط ، ليس فقط بوصفه المثل الأعلى للكمال الواجب الاقتداء به ، بل أيضاً ، ينبوعًا للطف والحياة الصوفية ، وبواسطة النبى يصل العبد إلى مقام الوصول والاتحاد . ويدخل فى السلسلة السرمدية لتجليات النور الإلهى ،

ويصبح إنساناً كاملاً مثل آدم وعيسى ومحمد ، والاتحاد ينظر إليه إذن عند ابن عربى على أنه بمعنى المحايثة التامة ، وعلى الرغم من كل التحفظات ، فإن أساس فكرة حلولى فى التصوف ، كما كان فى العقائد »[٦٠] .

برغم المنطق الهادئ والعبارة الدقيقة التى تنتقل بالمعتقد المسيحى نقلة نرجو أن تتم – فإن عبارة الحلاج وابن عربى لا تخرج عن المعنى الذى عبر عنه بعض الحكماء بقوله : « لا يبلغ المتحابان حقيقة المحبة ، حتى يقول الواحد للآخر : يا أنا »[٦١] .

والحلاج يقول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فـــإذا أبصرتنى أبصرتـــه
وإذا أبصرتـه أبصرتـنـا[٦٢]

فالأمر لا يعدو مجرد استشراف نفسى ، بعيداً عن كل القيود المادية ، ويكثر هذا بين شعراء الغزل ، وبخاصة العذريين ، لكن كأنما أراد بلاثيوس أن يبرر الموقف المسيحى بمشاركة إسلامية ، وادعى أن العقيدة المسيحية تتمثل فى (اتحاد اللاهوت بالناسوت دون أن يختلطا » ، مع أن المعتقد المسيحى تحوّل عن

---

(٦٠) ابن عربى – ص ٢٥٧ و٢٥٨ .

(٦١) اللمع – ص ٤٦٣ .

(٦٢) ديوان الحلاج – بغداد – مطبعة المعارف سنة ١٩٧٤ – ص ٥٥ .

قول عيسى عليه السلام : « هذه الأعمال بعينها التى أنا أعملها هى تشهد لى أن الأب قد أرسلنى »[يوحنا – ٥] – إلى قول بولس : « الكل به وله قد خلق » – [رسالة بولس إلى أهل كولوس – ١] – وإلى قول يوحنا اللاهوتى : « أنا هو الأول والآخر ، والحى ، وكنت ميتًا ، وهأنا حى إلى أبد الآبدين ، آمين ، ولى مفاتيح الهاوية والموت » – [رؤيا يوحنا] – وإلى قرار مجمع الثلثمائة والثمانية عشر ، زمن قسطنطين الملك : « نؤمن بإله واحد ، أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى ومالا يرى ، وبرب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور الله ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوى الأب فى الجوهر الذى به كان كل شىء ، الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب على عهد بيلاطس النبطى »[٦٣] .

فإذا كانت الصوفية اجتهدت فى تخليص الإنسان من المادة ، وتطهير روحه من أدران الجسد ، فى سبيل تخليصه من الحجب الكثيفة التى تحول دون تنور المعرفة الكاملة لله – فإن المسيحية انتكست بالمعرفة ، بحيث أضفت على الإله صفة البشرية ، ومكّنت منه أعداءه فى الأرض ، ثم تحولت باللغز والأسطورة إلى أن « الآب إله ، والابن إله ، والروح القدس إله ، ولكنهم ليسوا ثلاثة آلهة ، بل إله واحد ، ولا غرابة فى هذا » ، فإنه « مع كونهم ثلاثتهم ذوى طبيعة واحدة ، ترى كلا منهم منفردًا عن الآخر ، كاملا بذاته ، يتكلم باسم ، فيقول

---

(٦٣) ابن تيمية – الجواب الصحيح – مطبعة المدنى – جـ ١ ص ١١٨ .

الأب : أنا خلقت العالم ، ويقول الابن : أنا فديت العالم ، ويقول الروح القدس : أنا قدست العالم »[٦٤] .

* * *

ولا شك فى أن التصوف تخلى فى رحلته الطويلة عن أهدافه السامية ، وأصبح مظهرًا للدجل والشعوذة ، أو كما يقول أبو الحسن النورى :

« كانت المراقع غطاء على الدر ، فصارت اليوم مزابل على الجيف »[٦٥] . .

فإذا كان النورى من رجال القرن الثالث : فكيف بعد ألف عام ؟ !

روى عن سفيان الثورى ، أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء .

وأبو هاشم هذا « أسس فى أواخر القرن الثانى للهجرة – فى موضع الرحلة من بلاد فلسطين – صومعة للصوفية ، إلا أن الحياة فى الصوامع كانت نادرة فى هذا العهد : وكان أغلب الزهاد فى هذا العصر متجولين ، يتنقلون من مكان إلى مكان ، منفردين أو جماعات ، وكان بعضهم يأكل خبزه من كد يمينه »[٦٦] .

ولم يكن أبو هاشم أول من مضى فى هذا الطريق ، فقد « ذكر فى الكتاب الذى جمع فيه أخبار مكة عن محمد بن إسحق بن يسار ، وعن غيره : أنه قبل الإسلام قد خلت مكة فى وقت من الأوقات ، حتى لا يطوف بالبيت أحد ،

---

(٦٤) القس منسى يوحنا – شمس البر – مطبعة الأمانة – ص ٨٣ .

(٦٥) الرسالة القشيرية – جـ١ ص ١١٢ وينسبه الجوزى إلى سفيان الثورى – تلبيس إبليس ص ١٨٤ .

(٦٦) تاريخ التصوف فى الإسلام – جـ١ ص ٣٦ .

وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفى ، فيطوف بالبيت وينصرف ، فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم ، وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح » .

والحسن البصرى الذى أدرك جماعة من أصحاب رسول الله – ﷺ – « قد روى عنه أنه قال : رأيت صوفيًا فى الطواف ، فأعطيته شيئًا فلم يأخذه ، وقال : معى أربعة دوانيق ، فيكفينى ما معى »[٦٧] .

وتاريخ التصوف يربط مفهوم التصوف بأهل الصفّة تارة ، وبالرسول – ﷺ – مثلا وقدوة ، تارة .

بل إن هذا التاريخ ينسب إلى عثمان بن مظعون – رضى الله عنه – أنه أراد هجر الزوجة والأولاد فى سبيل التفرغ لله ، بل قيل : إنه أراد أن يختصى تخلصًا من عوامل الشهوة ، مع أن الاختصاء كان من أعمال رهبان المسيحية ، كما قال الجاحظ فى كتابه الحيوان .

وقيل : إن عثمان بن مظعون قال للنبى عليه الصلاة والسلام : نفسى تحدثنى أن أترك اللحم ، فقال الرسول : مهلا ، فإنى أحبه ، ولو أصبته لأكلته[٦٨] .

والرغبة فى الحرمان تقربًا إلى الله مشهورة بما جاء فى الصحيح : « أن نفرًا من أصحاب النبى – ﷺ – سألوا عن عبادته فى السر ، فكأنهم تقالّوها ، فقال أحدهم : أما أنا فلا آكل اللحم ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال الآخر : أما أنا فلا أنام على فراش ، فبلغ النبى – ﷺ – مقالتهم ، فخطب ، وقال : ما بال أقوام يقول أحدهم : أما أنا فلا آكل

---

(٦٧) اللمع – ص ٤٢ – ٤٣ .

(٦٨) تاريخ التصوف فى الإسلام – جـ ١ ص ٩٤ – ٩٧ .

اللحم ، ويقول الآخر : أما أنا فلا أتزوج ، ويقول الآخر : أما أنا فلا أنام فى فراش ؟ لكنى أتزوج النساء ، وآكل اللحم ، وأنام وأقوم ، وأصوم وأفطر ، فمن رغب عن سنتى فليس منى »[٦٩] .

تم هذا فى وقت كان الرسول والصحابة فى شغل بالدعوة وتأمينها ، فلما فتح الله على المسلمين بالفتوحات ، انغمست طائفة فى الملذات ، وانزوت طائفة تحمى أمر دينها من هذا الطارئ الجديد ، وتبالغ فى حمايته . . فلما كانت الفتن الإسلامية ، والحروب الداخلية الموحشة ، وانتشار المظالم ، والانهماك فى أمور الدنيا ، قويت العوامل الداعية إلى العزلة . . وكردّ فعل للانغماس فى الشهوات ، اندفعت طائفة فى ترويض النفوس على الحرمان . . وباحتكاك المجتمع الإسلامى بالمجتمعات غير الإسلامية ، وبالثقافات الوافدة من حضارات أخرى ، أخذت أفكار وعادات تتسرب إلى المجتمع الإسلامى ، وكل يكتسب على وفق استعداده وهواه .

ومن خلال الصراع بين الفرق الإسلامية ، صارت كل فرقة تعيد حساباتها ، وتجدد وجودها ، وتمدّ هذا الوجود بكل ما تحسبه من عوامل حياتها .

فما كاد القرن الثالث الهجرى ينتهى حتى كان للتصوف أركان ومبادئ ، واتخذ له طريقًا ومنهاجًا . .

وصار هناك تنظيم للجماعة يقوم على « أولئك الذين يعدون من أهل الحل والعقد ، وهم القادة فى ساحة الله جل جلاله ، وعددهم ثلثمائة ، وهم يسمون بالأخيار ، وهناك أربعون آخرون يسمون بالأبدال ، وسبعة آخرون يدعون

(٦٩) مدارج السالكين - جـ ١ ص ١٧٤ .

بالأبرار ، وأربعة يسمون بالأوتاد وثلاثة يسمون بالنقباء ، وواحد ينعت بالقطب والغوث ، وهؤلاء الجماعة يعرف بعضهم بعضاً ، وفى الأمور يحتاج أحدهم إلى الإذن من الآخر»[٧٠] .

وكان مرجع عقائد الصوفية حتى القرن السادس إلى القرآن والأحاديث أو المكاشفة والشهود والمشايخ والأقطاب ، وبعد ذلك صار للفلسفة وعلم الكلام نفوذ كلى ، ووفدت على الكتب الصوفية مئات الاصطلاحات للحكماء والمتكلمين ، وأصبحت أبحاث كثير من الحكماء موضع نظر أهل السلوك والتصوف ، من قبيل مسألة حقيقة الله والعالم ، والبحث فى ذات الله وصفاته ، وموضوع المعرفة الواقعية ، ومسألة علة الخلق وسر الخليقة ، وربط الحادث بالقديم ، ومسألة وحدة الوجود على منهج البحث الفلسفى ، وكذلك بحث الروح والبدن والنفس والعقل ، والعالم الصغير والعالم الكبير ، والأعمال والأفعال ، والجبر والاختيار ، وتقسيم العوامل ، وأمثال ذلك[٧١] .

ولم يقتصر الأمر على الاشتغال بالفلسفة وعلم الكلام ، فقد يكون وسيلة للدفاع عن الطريقة ومعتقداتها ونظمها ، وبخاصة أن الفرق الأخرى كانت تتخذ من الجدل مركبًا إلى غاياتها . .

لكن الأمر تحول عن مجرد الدفاع إلى تدعيم الطريقة بمفاهيم من خارج الشريعة الإسلامية . . فإذا قلنا عن الثقافة المسيحية . وبخاصة تلك التى اتخذت لها قواعد فى الرُّها وجُنديْسابور ، فضلا عن أماكن مختلفة فى فلسطين . وإذا عرفنا أن الثقافة المسيحية مزيج من الأفلاطونية الحديثة التى جمعت بين الفكر

(٧٠) تاريخ التصوف فى الإسلام – جـ ١ ص ٣٣٧ .

(٧١) المصدر السابق – جـ ٢ ص ٧٦٣ .

اليونانى والفكر اليهودى والفكر المسيحى ، ومن الغنوصية المعرفية الأدرية التى جمعت هى الأخرى بين الفكر اليونانى واليهودى والصابئى والمسيحى – إذا عرفنا ذلك أدركنا كيف أن فكرة « هناك سبعون ألف حجاب كامل تحول بين العالم المادى والحقيقة المطلقة » ، قد صيغت – وهى فكرة غنوصية – فى حديث نسب إلى رسول الله ﷺ : « إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة » . . وجرى الصوفية على أساس أن الإنسان سجين فى جسده ، وهذا الجسد هو أكبر حجاب بينه وبين الله ، وعلى ذلك يكون اهتمام الصوف بنجاة ذلك الجوهر السماوى من سجن الجسد ، وإزالة السبعين ألف حجاب ، بحيث يوحده بالحقيقة المطلقة (٧٢) .

ومرد هذه الفكرة إلى الأفلاطونية الحديثة كذلك ، تلك التى تدعو إلى « التسامى » على أساس أن النفوس البشرية لها مبدأ سماوى ، ولكنها هابطة فى الأجسام ، وهذا الهبوط هو عقاب غرورها ، وهو عقاب مؤقت ، ولو بذلت النفس الهمة ، ووجهت أفعالها نحو الخير ، لأصبح من الممكن أن تنال المشاهدة الإلهية ، وغاية الكمال والمطلوب هو العود إلى المبدأ ، أو حصول المتع الأبدى . . وطريقة ذلك تطهير النفس السفلية عن طريق التجرد من الشهوات الجسمانية ، والميول الحسية ، وممارسة الفضائل الأربع ، وهى العفة والعدل والشجاعه والحكمة (٧٣) .

وينبغى ملاحظة أن من رجال المدرسة الأفلاطونية الذين نشئوا فى « الرها » ، ثم رحل إلى بيت المقدس « اسطفن – بارسودايلى سورى » الذى كان

(٧٢) تاريخ التصوف فى الإسلام – جـ ١ ص ٢١٨ و ٢١٩ .

(٧٣) تاريخ التصوف فى الإسلام – جـ ١ ص ١٤٢ .

يرى أن « العالم كله بالنسبة إلى الله فى حكم الأشعة بالنسبة إلى الشمس ، كل الموجودات صادرة عن الله ، وهى تعود إليه » أى وحدة الوجود ، ولهذا حكم بتكفيره . . ومن مقولاته أن عقل الإنسان مستعد للحصول على ماله من الكمال ، بعد أن يمر بالمقامات والأحوال المختلفة ، حتى يتحد بهذا الوجود المحض ، ويفنى فى النهاية فى ذلك الوجود ، ويصبح هو نفسه[٧٤] .

وينبغى كذلك ملاحظة أن معظم أقطاب التصوف من تلك الأماكن التى انتشرت فيها هذه الأفكار . . هذا إلى ما هو معروف عن ذى النون المصرى الذى كان يتردد على الأديرة ، فضلا عن نشأته فى بيئة تروج فيها الأفكار المسيحية .

ولهذا نجد هذه الأفكار – منذ القرن الثالث الهجرى – يلهج بها كثير من المتصوفة ، ولكن فى صورة هامسة ، ما تلبث أن تستعلن شيئًا فشيئًا ، حتى تصبح معتقدًا أو شعارًا للكمال الإنسانى .

قال أبو يزيد البسطامى : كان الحق تعالى مرآة لى ثلاثين سنة ، وأصبحت الآن مرآة نفسى ، أى لم أبق كما كنت قبل هذا ، فإن قولى « أنا الحق » شرك ، فأنا ما فنيت أنا ، فالله تعالى مرآة ذاته ، فإذا قلت الآن إنى مرآة نفسى فذلك حق ، إذ إنه يتكلم بلسانى ، وإنى غير موجود حينئذ . .

. . صرت حدادًا لنفسى اثنى عشر عامًا ، أضعها فى كور الرياضة ، وأصهرها بنار المجاهدة ، وأجعلها على سندان المذمة ، وأطرقها بمطرقة الملامة ، إلى أن جعلت من نفسى مرآة لنفسى طيلة خمس سنين ، وكنت أجلو تلك المرآة بأنواع الطاعات والعبادات ، ثم نظرت بعين الاعتبار فيها سنة ، ثم نظرت إلى

(٧٤) المصدر السابق – جـ ١ ص ١١٩ .

باطنى بعين الغرور والخيلاء ، فوجدت زنارًا من الاعتماد على الطاعة والإعجاب بالعمل ، وجاهدت نفسى خمس سنوات أخرى ، حتى انقطع ذلك الزنار ، وحصلت على إسلام جديد .

وقالوا لأبى يزيد : متى يعلم المرء أنه بلغ حقيقة المعرفة ؟ قال : حينما يفنى تحت علم الحق ، ويصبح باقيًا على بساط الحق من غير نفس ولا خلق ، فحينئذ هو فان باق ، وباق فان ، وميت حى ، وحى ميت ، ومحجوب مكشوف ، ومكشوف محجوب . .

ويرى الجنيد : أن السبيل إلى الفناء هو إزالة الحجب . .

قالوا له : إنك تقول : الحجب ثلاثة : حجاب النفس ، وحجاب الخلق ، وحجاب الدنيا ، فقال : إن هذه الحجب الثلاثة عامة ، وهناك ثلاثة حجب خاصة ، هى : مشهد الطاعة ، ومشهد الثواب ، ومشهد الكرامة . .

وقال أبو سعيد الخراز : إذا أناب العبد إلى الله ، وتعلق بالله ، وسكن فى قرب الله ، نسى نفسه ، ونسى ما سوى الله ، فإذا قيل له : من أنت ، وماذا تريد ؟ لا يكون له جواب أفضل من أن يقول : الله . .

وقال الحلاج :

قد وسم الحب منه قلبى
بميسم الشوق أى وسم
وغـــاب عنى شهود ذاتى
بالقرب ، حتى نسيت اسمى

وقال أيضاً :

فى محو اسمى ورسم جسمى

سألت عنى فقلت : أنت

أسارِ سرى إليك حتى

فنيت عنى ودمت أنت

يقول عبد الرحمن الجامى : وتحقيق ذلك على كل من يفتح هذا الباب فى الحقيقة ، عن طريق السلوك أو الجذبة ، أن يجلس فى الخلوة غائبًا عن وجود نفسه ، متخليًا عن ذاته وصفاته ، يرى نفسه فى مرآة حبيبه ، وحبيبه فى مرآة نفسه ، ويقرأ فى مرآة نفسه أحوال حبيبه وصفاته . فالسير إلى مقام الفناء فى الله هو الفتح ليس إلا ، إذ « لا هجرة بعد الفتح »[٧٥] .

ولم يقف التأثر عند مفهوم « التسامى والفناء » ، بل اتسع لما يسمى بالحقيقة الواحدة ، التى يلتقى عندها الجميع دون تمييز ، فابن عربى يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى

إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى

---

(٧٥) الأمثلة من (تاريخ التصوف فى الإسلام) من أماكن متعددة ، ما عدا مثالى الحلاج فمن ديوانه .

لكنه بعد أن (عرف) صار كما يقول :

أدين بدين الحب أنى توجهت

ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

هذا الحب هو حب « الحقيقة الواحدة » ، التى أكثر من القول فيها صوفية فارس ، إذ يقول جلال الدين الرومى :

كانت الأعيان كلها زجاجات تختلف ألوانها ، انعكست عليها أشعة شمس الوجود ، فكل زجاجة كانت حمراء أو صفراء أو زرقاء ، ظهرت عليها أشعة الشمس بلونها .

ويقول ما خلاصته :

التقى فارس وتركى وورومى ، وأعطوا رجلاً درهماً ليشترى عنباً ، فنطق كل منهم مراده بلغته ، ولما لم يكن أحدهم يعلم لغة الآخر اختلفوا ، مع أن المطلوب واحد . .

ويقول : ترى العين أصل الشىء إذا كانت سليمة ، وترى الشىء اثنين إذا كانت حولاء .

إذا كانت الطرق مختلفة فإن الغرض واحد ، أو لا ترى أن الطرق إلى الكعبة مختلفة ؟ !

إن غصن الورد أينما ينبت فهو ورد . .

كل من كان له باب مفتوح فى صدره يرى كل ذرة شمسًا .

ويقول فريد الدين العطار :

إننى أراك ذرة على ذرة فى الطريق ، وأراك العالم ، فثم وجه الله . .

إذا تموج الكونان بمائة ألف موجة ، فالجملة كلها واحدة ، ولكنها جاءت مائة ألف مرة[٧٦] .

وإلى هنا يمكن أن نقول : إن الأمر ليس ذا خطر ، لقد ثقفوا وهضموا ، وصارت الثقافة عصارة أبدانهم ، فأنتجوا شيئاً خاصًا بهم ، وهذا الشىء لا يخرج عن كونه جِدًّا فى تطهير النفوس ، وشوقًا إلى مرضاة الله ، وحبًّا لذات المنعم العظيم ، وتقديرًا لأثره فى كل شىء ، وتطلعًا إلى أن تسع رحمته كل شىء ، وترفعًا عن كل مظاهر الحياة الدنيا ، حتى عن تباين صورها التعبدية .

لكن أن يصل الأمر إلى حد أن تصبح الشريعة وسيلة إلى غاية ، فإذا تحققت الغاية بطلت الوسيلة ، فهذا منطق غريب كل الغرابة عن الدين ، ولا دليل عليه من كتاب أو سنة أو سلوك المسلمين الأول ، ولا مجال فيه لاجتهاد ، لأنه ليس نابتًا من الشريعة ، بل خارجًا عليها ، مصادرًا لها .

ولقد بدأت هذه الدعوى بما يشبه الحرص على الكمال . . يقول أبو يزيد البسطامى :

ما لمحت فى الصلاة إلا قيامكم ، وما وجدت فى الصوم إلا جوعكم ، وكلها عندى إنما هو من فضله ، وليس هو من عملى .

ويروى جلال الدين الرومى قصة ملخصها :

كان راعى الأغنام يناجى الله بقوله : أين أنت حتى أصير عبدًا لك فأخصف نعلك ، وأمشط شعرك ، وإذا دهاك مرض أحمل همك ، كما أحمل هم نفسى ، وإذا عرفت دارك أحمل إليك السمن واللبن كل صباح ومساء ؟ !

(٧٦) الأمثلة من (تاريخ التصوف فى الإسلام) من أماكن متعددة . .

فنهره موسى عليه السلام ، وقال : ويحك ، لقد صرت جريئًا ، وأصبحت كافرًا ، قبل أن تكون مسلمًا ، فإن لم تكف عن هذا الكلام فستنزل نار وتحرق الخلائق أجمعين . .

قال الراعى : لقد سددت فمى ، وأحرقت روحى من الألم . .

ومزق قميصه ، وتأوه بحرقة ، واتجه إلى جانب الصحراء ، وسار .

ثم جاء الوحى يعاتب موسى : لقد جئت لوصل الناس بنا ، لا لفصلهم عنا . . نحن لا ننظر إلى الظاهر والقال ، بل ننظر إلى الباطن والحال . .

والشاهد – كما يقولون – فى قول الله سبحانه : (نحن لا ننظر إلى الظاهر والقال ، بل ننظر إلى الباطن والحال) . فالعبارة تبدو – فى ظاهرها – متمشية مع الحديث الشريف : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » ، وما أبعد الهدفين .

ذلك أن « الرومى » اتخذ قصته سلمًا إلى الاجتهاد فى الوصول إلى الله بأى وسيلة ، وكأن الله لم يرسل رسله لتنظيم هذه الوسيلة ، وجعل من موسى – عليه السلام – شخصًا جاهلا منفرًا ، وكان بوسعه أن يجعل موسى معلمًا وهاديًا لهذا الرجل « الجاهل » ، فيرشده إلى الله بكمالاته ، وإلى الطريقة التى تتناسب مع جلاله .

سأل شمس الدين التبريزى جلال الدين الرومى : ما الغرض من تعلم العلم ؟ فأجاب : معرفة آداب الشريعة . قال شمس الدين : إن هذه كلها ألفاظ . فقال جلال الدين : فأجب أنت . قال شمس الدين : إنما العلم هو الذى يوصلك إلى المعلوم . . وأنشد للسنائى : العلم الذى لا ينقذك من نفسك خير منه الجهل مائة مرة . .

والشاهد أيضًا فى قول شمس الدين : « إنما العلم هو الذى يوصلك إلى المعلوم » ، بمعنى : إذا وصل صاحبه لم يعد فى حاجة إليه ، مهما يكن هذا العلم .

قال جلال الدين الرومى : إذا كان الشخص جالسًا فى حضرة السلطان فالبحث عن الرسالة والرسول من الغباء . .

قالها جلال الدين عارية تمامًا .

ولقد قيل : إن رجلا جاء بشر الحافى – ت سنة ٢٢٧ هـ– فقال : إننى أملك ألفى درهم ، أريد تزكيتها ، لأنى عازم على الحج ، فقال له بشر : أنت ذاهب للتفرج ، فإذا كنت ذاهبًا لله فاذهب وأقرضها لشخص ، أو أعطها ليتيم ، أو لرجل خاوى الوفاض ، فإن راحة قلب مسلم أفضل من مائة حجة . ، . قال الرجل : أرى رغبة فى الحج فى نفسى أقوى ، فقال بشر : لأنك لم تحصل هذا المال بطريق حلال ، فلذلك لا يستقر لك قرار إلا بصرفه فى غير وجوهه . .

يمكن أن يقال : إن هذا الخبر مصنوع لتأييد هذا المسلك الجديد ، فراويه فريد الدين العطار ، ربما رواه سلمًا إلى قوله : لو كنت محبًا لجمال الحبيب فاعلم أن القلب مرآة لقائه . .

يقول جلال الدين الرومى : أيها القوم الذين رحلتم إلى الحج ، أين أنتم ، أين أنتم ؟ المعشوق ها هنا ، تعالوا ، تعالوا . . إذا كانت غايتكم رؤية كعبة الأرواح تلك ، فاصقلوا وجه المرآة أولا وقبل كل شىء . .

ويقول أبو يزيد البسطامى : كنت أطوف مدة حول البيت ، ولما وصلت إلى الحق رأيت البيت يدور حولى .

ويعلن جلال الدين الرومى إبطال الشريعة فى مرحلة الوصول بقوله :
لما كانت المرآة صافية مجلوة فمن الجهل القيام بصقلها[٧٧] .

* * *

يمكن تأويل الأمثلة الواردة قبلُ بما تطيب له النفوس .

لكن مع غلبة الزيف ، وكثرة المتاجرين بالدين ، اتُّخذت مثل هذه العبارات ذرائع إلى الدعاوى الباطلة ، والعبث بعقول السذج . . وبخاصة حين صارت البلاد الإسلامية مسرحًا للطامعين والمغامرين ، من داخل البلاد ومن خارجها . . وحين صارت الفتن تأتى على الأخضر واليابس من اقتصاد البلاد ومن ضمائرها . . ومن ثم أصبح همّ الصوفية فى مظاهر خادعة ، وحلقات للذكر تصطاد عقول العامة وجيوبهم ، دون أن تحارب بدعة ، أو تنشر معرفة ، أو تثور فى وجه ظالم . .

إلا أن هذا التحول لا يدفعنا إلى إنكار دور التصوف جملة ، فى الوقت الذى نردد فيه القول المشهور : ما فسد الإسلام ، ولكن فسد المسلمون . .

---

(٧٧) الأمثلة من (تاريخ التصوف فى الإسلام) ، من أماكن مختلفة .